رواية "خطوات في الاتجاه الآخر" لحفناوي زاغز
ـ العنف يعانق جمالية الإبداع ـ

Hafnawi Zaghez's novel "Steps in the Other Direction"
-Violence Embraces the Aesthetic of Creativity–

(فاطمة قسول)*

تاريخ الإرسال: 2020/10/30	تاريخ القبول:2020/11/25	تاريخ النشر:.2020/12/30

الملخص:

خيّم العنف على الجزائر خلال سنوات التسعينيات الماضية، وجثم على صدور أبنائها لردهة من الزمن، مأساة وطنية لم يكن الكتّاب بمعزل عن واقعها المأزوم، فجاءت إبداعاتهم الأدبية مثخنة بالجراح والآلام، مجسدة حالة الخراب التي عصفت بآمال الشعب الجزائري ، وجعلته يعيش عشرة سنوات من عمره تحت وطأة إرهاب ليس له ملّة ولا دين، ولا يعترف إلاّ بشعار الدم حليفا، من هنا تتأتى أهمية هذا المقال، الذي نقف فيه على توصيف العنف وجمالية معانقته للإبداع الروائي، في " خطوات في الاتجاه الآخر لحفناوي زاغز"، التي تعبّر عن حالة الضياع والتيه التي عاشها البطل السياسي نجم الدين، في صورة للضغوطات التي عاشها السّاسة أصحاب المناصب والتي فرضتها المنظمات الإرهابية عليهم في ذلك الوقت، أملا في إيجاد مكان في الحكومة من خلالهم، تسهيلا لتنفيذ مخططاتهم الدموية.

الكلمات المفتاحية: العنف، الإرهاب، الجمالية، الإبداع.

Abstract:

Violence descended on Algeria and crouched on its people for a long time during the last nineties. It was a national tragedy that writers were so related to its precarious reality that it appeared in their painfully wounded

المؤلف المرسل: فاطمة قسولfatimakassoul03@yahoo.com

*مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، البليدة ـ2 ـ، الجزائر fatimakassoul03@yahoo.com

writings. Their texts embodied the devastation that struck the Algerians' hopes, and made them live ten years under the weight of terrorism that has neither religion nor belief, and only allies blood slogan. Hence, the importance of this article, in which we stand on describing the aesthetic of violence that embraces novel creativity. We spot the light on "Steps in the Other Direction" of Hafnawi Zaghez, which expresses the state of loss and wandering that the political hero Najm al-Din lived through. The novel also pictures the pressures experienced by politicians in office and imposed by terrorist organizations at that time, hoping to find a place in the government through them, to facilitate the implementation of their bloody plans.

***Key words**: Violence, Terrorism, Aesthetic, Creativity.*

*** *** ***

مقدمة:

تعتبر الرواية الجنس الأدبي الأنسب للتعبير عن حياتنا، خاصة إذا حملت تفاصيل مأزومة، معقدّة وغامضة، والجزائر عاشت الكثير من الأزمات بداية من الاستعمار الفرنسي الذي نخر جسدها طيلة قرن وربع قرن من الزمن، بوحشيته التي خلّفت مليون ونصف مليون شهيد، قدموا أرواحهم فداء للحرية والاستقلال والعيش بكرامة،أعقبتها مرحلة مابعد الاستقلال والحراك السياسي والاجتماعي الذي شهدتة الساحة، ومحاورتها المصائر الفردية والجماعية بكل طموحاتها وانكساراتها، وآخرها العشرية السوداء التي عصفت بالجزائر والجزائريين، لتتعايش الرواية الوطنية مع هذا الواقع المأزوم بكل تفاصيله وتحولاته، فعبّرت نصوصها بطرق متنوعة ومختلفة عن هذا الوضع المأزوم، الذي اتسم باستعمال كل أنواع العنف الرمزي والمادي، والذي غيّب الأمن والاستقرار السياسي والاجتماعي للبلاد، جراء تداخل المفاهيم والقناعات، وزعزعة اليقينيات.

فكل هذه الأزمات والتحولات التي شهدتها الجزائر، والتي عصفت بآمال الشعب، وبرغم سلبيتها إلاّ أنّها كانت محفزا إيجابيا ودافعا قويّا لإغناء المتن الروائي الجزائري، ونحن عبر هذا المقال نهدف إلى التركيز على الأزمة الوطنية، والعنف الدموي الذي عاشته الجزائر مع بداية التسعينات من خلال رواية " خطوات في الاتجاه الآخر" لحفناوي زاغز"،

***ISSN:** 2352-9830* ***EISSN:** 2600-6898*

نص قلق يحتفي بالحقيقة والخيال، و"التصدي للظلم والسيطرة والكذب والتعذيب والاغتيال، وفتاوى إهدار الدماء التي هي وقود الإرهاب، وكل ما يجعل الإنسان أقل إنسانية، أو ينحط به إلى مرتبة الحيوانات أو الأشياء الجامدة"[1]، فكيف تحول العنف إلى سمة جمالية إبداعية؟ وما هي آليات تجسيده ؟.

2. العنف الماهية والمفهوم:

1.2 العنف لغة واصطلاحا:

يعني الحزم في اللغة الأمر و عدم الرفق به، وهو ضد الرفق،عنف به وعليه يعنف عنفا وعنافة وأعنفه و عنفه تعنيفا و هو عنيف، إذا لم يكن رفيقا في أمره، و اعتنف الأمر: أخذه بعنف، أما الشخص العنيف فهو: الذي يحسن الركوب، وليس له رفق بركوب الخيل، و أعنف الشيء أي أخذه بشدة، واعتنف الشيء: أي كرهه، والتعنيف: التعبير والتوبيخ و التفريع[2].

أمّا اصطلاحا فيعني كل أذى مادي معنوي، يلحق بالأشخاص أو الهيئات أو الممتلكات،" مصدره القوة التي تتخذ أشكالا مختلفة ليست الشرطة، أو الجيش أو السلاح فقط، إنما لها أشكال أخرى متعددة، يمكن البر هنة عليها بالنظر إلى المجتمع، و الحياة اليومية فكل تراكم للمعرفة الاجتماعية ، و كل نوع من أنواع البحث والدراسة والتنميط والتصنيف، والحكم هو صورة من صور ممارسة القوة و بالتالي العنف "[3].

2.2 العنف في الرواية الجزائرية:

إنّ المشهد الروائي في الجزائر، اصطدم منذ بداية التسعينات بجملة من الأحداث السَياسية و الاقتصادية و أيضا الدينية ....،التي عبَرت و رصدت بدورها مجمل الأوضاع السائدة في تلك الآونة الحرجة، فهذه الأحداث شكلت منعرجا حاسما في تاريخ الجزائر المعاصر، جعلتها تخوض حربا أهلية عنيفة غير معلنة، والتي هدَدت أمن البلاد وهزت كيانه السياسي .

فبعد أحداث أكتوبر1988 والانتفاضة الشعبية للجزائريين إبان حكم الشاذلي بن جديد، المطالبة بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتي أدت بدخول الجزائر في أزمة عنيفة، نتج عنها موت العديد من أبنائها الذين راحوا ضحيَة الغدر وسوء التنظيم، ويتحوّل الوطن إلى ساحة صراع، تتأجّج بالدّم يتصارع على رأسها عدَة أنظمة وأحزاب، تسعى إلى اعتلاء كرسي السلطة والرئاسة، ضاربين عرض الحائط بمساوئ هذا التكالب والنزاع العنيف، الذي سيدخل البلاد في نفق مظلم يصعب الخروج منه.

على غرار أبناء الوطن الجريح، الذين صرخوا بأعلى صوت، بوقف إراقة الدماء والتكاتف لأجل هيمنة الاستقرار والأمن، والتنديد بكل ما يحصل ،لم يستطع الأديب الجزائري السَكوت عن هذا الجرم المسلَط على بلده ومجتمعه، رغم التهديدات التي طالته بفصل رأسه عن جسده، فالرعب و الدمار و الإرهاب أضحى واقعا يجب التصدي له بكل جرأة و إصرار، و فضح كل ما كان سائدا و كشف السَتار عن الأمور التي كانت الجزائر تتخبط فيها، و لهذا نجد أنَ الواقع الدموي الذي طرأ على الوطن قد انعكس بطريقة واضحة على تجربة الروائي الفنية، والتي واكبت كل المجريات الحاصلة في تلك الفترة.

وعن اتجاهات الكتابة التي ولدتها المأساة الوطنية، فقد اختلفت باختلاف الأدباء "فمنهم من أعلن تمرده و رفضه لواقع الموت، داعيا إلى استرجاع القيم الإيجابية للمجتمع ... ،ومن الكتَاب من فضَل التقوقع حول نفسه ...،و منهم من اختار الماضي الثوري المشرق مالاذا لهم، وقد اعتبروا أنَ إصلاح الواقع الاجتماعي الرَاهن، عملية مرهون نجاحها بالرَجوع إلى القيم الثورية، وهذه نظرة مثالية هدفها تجاوز مآسي الواقع فحسب، ومن الروائيين من اختار المغامرة في التجريب والتحدَث "[4]، فاختلاف الصيغ والمسالك، إنّما يرجع إلى اختلاف التوجهات التي تستند إلى تجربة ذاتية، تنشأ من النَظر إلى الواقع بطريقة معيَنة، والتي جعلت الكتابة الروائية تتميَز بعدَة مواصفات منها: استخدام لغة تحمل كثيرا من التَشاؤم والسَوداوية، والإغراق في الغموض والمجهول، إضافة إلى رؤى تعكس الخوف من المستقبل، ورفض الموت المجاني، والشعور بالانتحار المبرمج ...وأنَها مليئة بالفاجعة

ورافضة للسياسة، وتسعى للكشف عن مؤامرة غير واضحة، فضلا عن تشيعها بالأسئلة التي تبقى معلّقة إلى حين".[5]

3. العنف في رواية "خطوات في الاتجاه الآخر":

تعتبر هذه الرواية عملا هاما، باعتبارها تقوم على علاقة الكتابة بالوجود، وشهادة على ما عاشه حفناوي زاغز، عبر تغطيته لهذه الحقبة الصعبة، ولا مراء في أنه يعمل على مساعدتنا في معرفة العنف المعاش عبر الزمان والمكان وبلوغ حقائقه، بالإضافة إلى التعامل معه، باعتباره موضوعا للأدب، وغرضا له يتطلع إليه في بعده الجمالي الأدبي، " ذلك أن المتأمل في كتابات العنف الأدبية، يتبيّن أنها لا تكتفي دوما برسم العنف كما يقع في المجتمع والتاريخ، بل إنّ فعل الكتابة نفسه فيها يمكن أن يكون فعل عنف، أو فعل/ انفعال من مورس عليه العنف، ويمكن للكتابة وهي تكتب العنف أن تأتي هي نفسها كتابة عنيفة مدمرة انقلابية انتهاكية، ما يتطلّب التحرّك في اتجاهين: اتجاه كتابة العنف (المضمون)، اتجاه عنف الكتابة (شعرية العنف)،أي الكيفية التي يقول بها الأدب العنف، والإنصات إلى العنف من خلال محكيه الخاص، من خلال أسلوبه ولفظه الفريدين"[6].

وزاغز آثر المضي في الاتجاه الثاني، الذي نتعرّف من خلاله عن الكيفية التي كتب بها العنف، فهو الذي عايشه بكل أنواعه وتكبد قهره وألمه، فالتصدي للإرهاب هو موضوع "خطوات في الاتجاه الآخر"، بطله (نجم الدين) من الطبقة المتوسطة، موظف في وزارة الخارجية ومسؤول في المنظمة الدولية، التي تعنى بالسهر على مقاومة الجريمة المنظمة والإرهاب في العالم،

" تم إشعاري من لدن الجهة المسؤولة بضرورة الإعداد والتأهب للمساهمة في مؤتمر هام سينعقد في منتصف الشهر الموالي .. لدراسة أبعاد العنف المنظم ذي الطابع السياسي ومدى خطورة تبعاته على الأمن والاستقرار في الدول العربية"[7].

وما كاد يتخطي الجمارك، حتى تقدم منه شاب كله لطف، سلمه رسالة رجاه ألا يقرأها إلا عندما يستقر في فندق "الهزار"، الذي سينزل فيه لحضور المؤتمر الذي يدوم

أسبوعاً.. في طريقه إلى قاعة الاجتماع، يعرف أن صديقاً له في "الدولية" قد اغتاله الإرهاب، فأوفدت دولته ممثلاً آخر عنه ...، الرسالة ترشحه ليكون عضواً عاملاً في منظمة تسمي نفسها جهادية، ويسميها ضحاياها إرهابية، هدفها إقامة دولة إسلامية، لا يعرف عنها شيئاً لكنها تعرف عنه كل شيء، ليجد نفسه و اقعا في مأزق الاختيار، كيف يزج بنفسه في عمل تخريبي، وهو الذي يحضر مؤتمر الدولية المنظم للتنسيق بين الأمم لمقاومة الإرهاب، كيف يزج بنفسه في عمل تخريبي ، وهو الذي ربته أمه على "دين الحب" كما يقول ابن عربي المتصوف الكبير، و"الابتعاد عن الأذية حتى مع الخصوم"، كيف يزج بنفسه في عمل تخريبي، وهو الذي سقط والده الشيوعي تحت رصاصات الإرهاب، مما أورثه كراهية العمل السياسي العلني والسري.

يجثم العنف على صدر السارد، المتلبس بالحيرة والخوف والتيه، ليهيمن على مساحة الخطاب ،فنجم الدين المناضل ضد الإرهاب، الذي تشرّب من أخلاق القرية التي تملي عليه سلوكياته الأخلاقية ، وأولها أن لا يكون ذئباً بين الذئاب، بل إنساناً يحكمه ضميره الواعي وقيمه النبيلة ، غير أن إنسانيته لم تنقذه من بر اثن الإرهاب، ووجد نفسه يحيد عن طريقه، منقادا نحو الاتجاه الآخر، ولا يملك حق الرفض و إبداء الرأي بكل شفافية.

" كنت في تلك الأثناء أزداد قناعة بأن المسافة بيننا لا تني تتسع وتتراح حتى صرت أحشى تلاشي إمكانية التواصل، و أتحرى إمكانية التواصل، و أتحرى التقارب من خلال هذا النوع من الحوار الذي يفتقر أساسا إلى وجود حكم محايد... وقد ساعد على تعميق الهوة تباين منطلقاتنا الفكرية ومستوى حصيلة كل منا الثقافية والإيديولوجية مما أدى إلى اختلاف نظر اتنا للو اقع، آخذت أفكر بسرعة قصوى ، فلم أجد مخرجا مما أنا فيه، غير مجاراة مخاطبي مع مراعاة الحذر..."[8]

خطاب يشرح الحالة التي وصل إليها كل مناضل، يكافح ويدافع عن حقوق الإنسان، واستغلال المنظمات الإرهابية لهم ولمناصبهم، لتدعم بهم نفسها وتضمن استمرارها ووجودها وتمويل مشروعاتها الدموية.

" الإرهاب أصبح يستشري في البلاد، يتعمق،يغوص، لم تكد نسلم منه أسرة أو تنأى عن الامتداد إليها مؤسسة أو قطاع"[9].

خطاب عرض صورة الإنسان/المجتمع، من خلال خضوع نجم الدين دونما إرادة منه لضغط المنظمة الإرهابية، وهمومه النضالية التي تسكنه أمست مجرّد أحلام، لينسج زاغز هذا الضعف المشروع والرضوخ اللاإرادي نسجا واقعيا، مستندا إلى جملة من الاستراتيجيات الخطابية الجمالية والمتمثلة في:

1.3 الأنا والذات والعنف:

لقد أخذت الرواية شكل السيرة الذاتية، التي تقوم على "حكي استعدادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية ، وعلى شخصيته بصفة خاصة"[10] ، والراوي في خطوات في الاتجاه الآخر ليس محايدا بالنسبة للأحداث، إنما هو أساسها باعتبارها تقف على حياة حفناوي زاغز نفسه، ضابط الشرطة الذي ساومته المنظمة الإرهابية على حياته وحياة عائلته، والذي لم يستطع البوح تحت وطأة التهديد، فوجد في الرواية مجالا رحبا من الحرية والتخفي في ذات الوقت ،ليعبر عن مأساته عبر شخصية نجم الدين الروائية، المستلهمة من مخيلته لذا فهو ككاتب، فضل " أن يكتب سيرته الذاتية في زي روائي، مستفيدا من هذه الحرية، فيجرؤ على أن يدلي بما لم يكن في استطاعته أن يدلي به، لو أنه كتب اعترافا مباشرا"[11] ليتماهى كلياً مع السارد، مع هيمنة ضمير المتكلم، الذي يحيل بدوره على الذات، و يعلن صارخا بأن زاغز نفسه الراوي لقصته ويعلن ذلك ابتداء من الصفحة13من الرواية بعد أن يتغير الضمير من الغائب إلى الأنا الحاضر، معلنا بأنه صاحب الحكاية بقوله:

" فوراجتيازي منطقة الجمارك التي أذن لي فيها بالخروج دون تفتيش، انبثق أمامي من العدم شخص لا أذكر أني رأيته"[12]

" أنا رجل كثير الأسفار، طبقا لمقتضيات عملي ... "[13] .

وأنها سيرته الذاتية،"ففي الوقت الذي ينسحب فيه الراوي إلى ذاته، يسحب معه بساط السلطة، لينفرد وحده بإدارة النص السردي، ولأن السيرة وليدة الإحساس بالفردانية ...،فالحس القوي بالفردية، قد يكون باعثا قويا على ظهور السيرة الذاتية باعتبارها جنسا أدبيا"[14]، والحاصل في الرواية هو أن عُرى إحساس نجم الدين بالانتماء إلى الجماعة إبان فترة الأزمة، لا يكرس مبدأ الجماعة بقدر ما تدينه، وتدين العنف المسلّط الذي يعيشه الجزائري، بسلبه حق تقرير مصيره، ومصادرة حريته، فالسيرة الذاتية تعتبر منبرا أتاح له كشاهد عيان أن ينقل بمصداقية ما حدث في هذه الفترة المأزومة، "ليمثل اللجوء إلى الذات، نوعا من إعادة اكتشاف الأنا التي كانت معفرة بأتربة الجماعة، ...والفرد هو الوحيد الذي بإمكانه أن يبلور هذا الاحتجاج، ويشكل خطاب الإدانة "[15]، فاستبطان تلك اللحظات المعاشة كان من وحي الذات المسلوبة.

" إنني بإذنه تعالى سأناضل من أجل الارتفاع بقدراتي إلى مستوى ثقة الإخوان"[16]

الذات التي لم تقرر مصيرها ورضخت رغما عنها، فلم يجد حفناوي زاغز ملاذا للهرب منها ومن تعبه الروحي غير الكتابة التي تجعله يحس بإنسانيته، ويطلق العنان لصوته المكبوت والمقموع تحت وطأة التهديد، ليندد بجرائم هذه المنظمات الإرهابية، التي تسعى لتشتيت الذات الجماعية .

2.3: القمع السردي وعنف الهيمنة والاعتراف:

إنّ فعل الهيمنة على الآخر وإخضاعه والسيطرة عليه، واحد من أوجه العنف المتعددة، فالعنف في واحدة من مسالكه وتجلياته، يتخذ له طريق السيطرة على الآخر،والهيمنة على مقدرات وجوده، و" خطوات في الاتجاه الآخر"، تجسيد لرواية قمع الحريات، ذلك أن الحديث عن أزمة تعبير الجزائري عن الحرية والوعي أثارت حفيظة الكاتب وعبر عنها من خلال المعاناة التي يعيشها نجم الدين أو بالأحرى حفناوي زاغز، وهيمنة المنظمة الإرهابية على قراراته، وتحول مبادئه تحت وطأة التهديد وانضمامه إليهم رغما عنه، مسلوب الإرادة، وإجباره الإقدام على عمليه اغتيال لأربعة أشخاص (

شرطي، دركي، جندي، صحفي)، ليثبت ولاءه، وتلطخ المنظمة يديه بالدم، باعتباره فعل أساسي في تركيبتها الكينونية المتطرفة .

".... ولكن ليس قبل أن توقع على تعهدك بالالتحاق بمنظمة الدعوة والجهاد وأن تعرب صراحة دون مواربة عن استعدادك لتنفيذ كل ما تؤمر به دون اعتراض أو استفسار قبل الفعل"[17]

فعنف الهيمنه والقمع الذي مورس في حقه، جعل نجم الدين يعيش الخواء الروحي، والاغتراب النفسي، والانكسار والإحساس بالضعف وفقدان الأمل، ويمسي رجلا مقموعا ، بلا روح، بلا وازع وطني، معفرا بتراب من لا هوية ولا دين لهم.

" ما هكذا ينبغي لك يا نجم الدين أن تقذف بنفسك من النقيض إلى النقيض، بالأمس كنت من عتاد المناضلين ضد الإرهاب، وإذا بي اليوم أجدني في صميم بؤر منظريه والعاملين على تطويره وتعميق محتواه.." [18] .

ولأن الجرأة أو المواجهة والاعتراف تعد من سمات الرواية المعاصرة، كانت سلاح حفناوي زاغز لرفع القمع والهيمنة الممارسة ضده، لتعتبر روايته تراكما لانفجارات قولية, واجه بها واقعه الذي سلبه حرية التعبير، وأدى به إلى قرار الانضمام للجماعات الإرهابية.

" ما كان ليخطر على بالي ولا حتى يمكن أن يرد على ذهني كلية في أقصى الاحتمالات أن أجد نفسي ذات يوم أنتمي إلى بعض المنظمات التي تمارس أي صنف من أشكال العنف، محليا كان أو إقليميا أو دوليا، سواء كعضو بسيط، أو رئيس خلية أو أمير على مجموعة منهم"[19].

والاعتراف هنا تقنية استرجع من خلالها ذاته المسلوبة، وتطهيرها من الخطايا والآثام التي ارتكبتها دونما إرادة منها، إنه الإقرار على النفس، بما توارى في طوايا الأيام من خفايا وأسرار العشرية السوداء، إقرار وكشف الممنوع والمسكوت عنه مادام رجلا ينتمي إلى السلطة، رجلا مناضلا وإن أجبر على اختيار الاتجاه الآخر دونما إرادة منه، و من المعلوم أن أدب الاعتراف أو الرواية الاعترافية في الساحة العربية والخوض فيه لم يلق رواجا، ذلك أن الشخص العربي دائما يشاهد نفسه يولد ويكبر ويموت إنسانا معصوما من

الأخطاء، غير أن زاغز خطا هذه الخطوة بكل جرأة، واعترف على ما أقدم عليه بانضمامه للجماعات الإرهابية، إلاّ أنه لم يفقد إيمانه بمبادئه، ومحاربة أي محتل مهما كانت صورته. " فعلا تلك هي أمنيتي أن أقاتل بكل ما أملك أو أستطيع الحصول عليه، محتلا لوطني أو أي وطن عربي"[20].

كما أن النبرة الاعترافية بنت جسرا لتواصل زاغز من جديد مع ذاته، ذلك أن البوح هنا مثل فعلا معاكسا تماما لما تدور حوله الرواية، من استخدام المنظمات الإرهابية لرجال السلطة خدمة لمصالحهم الدموية، إنه اعتراف الجوهر والوجود، اعتراف الأمل الذي يقاوم به ما فرض عليه، وأن إنسانيته ووطنيته ليستا محل شك ومساومة.

3.3 العنف الداخلي:

يرى السارد في الحلم محبوبته الجميلة (فاتن)، التي التقى بها عندما قضى أسبوعين في المدينة، التي انعقد فيها المؤتمر، وعاشا معا لحظات حب من بعيد في فندق "الرياحين"، جعلته أسير جمالها، فتاة في ربيع العمر، استضافته ليكون ضيفاً على حساب فندق "الرياحين"، الذي انتقل إليه بعد يومين قضاهما في فندق "الهزار".

" جميلة كل شيئ فيها مشرق جذاب غدائر شعرها الذهبي، قسمات وجهها الفاتن الصبوح.. عيناها النجلوان، أنفها المنتصب في تناسق وعناية فوق شفتين كفلقتي صباح بديع، يوخيان لمن يتأملها بالدفء والأمان.." [21]

وفي ظل أشغال المؤتمر المرصود لمقاومة الإرهاب، يدور بينه وبين "فاتن" حوار حب، ومن شاعريته وحساسيته ورومانسيته وصدقه لا نستبعد أن يكون حقيقة لا خيالاً، يحرّك في ذاكرة قارئه ذكريات حبه القديم، الذي سكنه في وقت عصيب، وأصبح هاجس الخوف من فقدانه أكبر كوابيسه.

رأيت فيما يرى النائم: " فاتن تقف غير بعيد عني، وهي تنظر إلي بالاستغراب ، كأنما في داخلها يختلج شعور غامض ...ترغب في الإفراج عنه بكلمات .. حاولت أن أستوضح.. عجزت عن التعبير بما يمكن أن أفك به المستغلق...فجأة اختفت..نبتت لدي رغبة البحث

عنها مهما كلفني جهد التنقيب.. سأكابد المستحيل... صرت كالمدلج في البيداء لا أنيس ولا زاد ولا أمل في النجاة ..." [22]

فلا شك أنّ الكابوس الذي استيقظ منه مذعورا مفزوعا، ليس مجرد حلم، بقدر ما أنّ ما يعيشه (نجم الدين)، هو صورة للفرد الجزائري، الذي يعيش واقعا متأزما مليئا بالخوف والوجع، حتى وهو يضع رأسه على وسادة النوم، هي شطحات سارد يرتحل بين واقع الوطن والكابوس، الذي لا يجسد غير الحقيقة الدموية التي أصبح الشعب الجزائري يتجرعها بفيض من الرعب والوجع.

"بلد تزخر بالمخاوف وتفيض بالرعب وتمطر بالموت"[23]

في حركة فكر قوية الصلات ذات روابط منطقية، ولدت من رحم الواقع المأساوي،ليندرج هذا السرد ضمن أفق تخييلي، مشحون بطاقة جمالية هائلة، ففي هذا المشهد يقترن الكابوس بالواقع، ليضاعف الحسرة والألم على وطن طوقه القتل والتطرف والقمع ،الذي أدى إلى انقسام في الهوية الجماعية، فنجم الدين المأزوم المعذّب يعتقد أنه عبر لقائه بفاتن وجد الجمال الذي سيؤنس خوفه، وينسى به عذابه الداخلي، لكن هاجس فقدان محبوبته لا يفارقه، وتجسد له في هذا الكابوس الذي اختفت فيه، والذي سيجعله يكابد المستحيل لأجل أن لا يفقدها، حب حقيقي يتحرك في جنابات الذاكرة، يتكشّف لنا عبر مفارقات الزمن وأحداثه التي تتهاوى صوب الصراع وتفكك الواقع.

4.3 المنولوج الداخلي والعنف:

المونولوج "ارتياد مستوى ما قبل الكلام من الوعي بهدف الكشف عن الكيان النفسي للشخصيات"[24]، محرك جمالي آخر وظفه زاغز وراسم لعوالم الرواية، فالتيه الذي أضحى يعيشه نجم الدين، باعتباره موظفا في النظام، ومكلفا بمكافحة الإرهاب، وفي نفس الوقت أصبح فردا من الإرهابيين الذين فوضوه لأجل الجهاد العراقي الشريف، جعله يعيش أزمة وصراع داخلي ولدت من رحم العنف.

"قلت في ذاتي: اللهم أبعد عني خطر هو اتف الجماعة من أجل خوض غمار تجربتهم التي تتمحور حول العنف وتتوخى القتل والهلاك... " [25]

تقنية رئيسة تسلط الضوء على الجوانب الداخلية والنفسية لذات نجم الدين، وترسم لها استراتيجية البوح بالآلام والأوجاع والرغبات المكبوتة، وتعكس ما تعيشه من انكسار وصراع نفسي.

" فأنا الآن شئت أم أبيت أحد مرشحيهم وحسب ما يبدو ليس بإمكاني أن أرفض، وهب أني قلت الانضواء تحت أجنحتهم وانتهاج السبل التي يسلكون، فماذا يكون دوري معهم بالضبط،..لست أدري ما إذا كنت أقوى أن أزج بنفسي في دوامة ذلك الفعل "[26]

فالمنولوج الداخلي يرصد التشظي الذاتي للشخصية البطلة، ويقنّن خطواتها المحسوبة، لئلا تميل إلى اتجاه دون الآخر مستنطقا أغوارها، وعارضا لصرخات صوتها المكبوت، وقد نجح الكاتب في إدارة هذا الحوار الداخلي، دون أن تتناقض شخصية نجم الدين مع نفسها، وظلت متناقضة مع الإرهاب، وبهذا حافظ المؤلف على الموقف الفكري لشخصيته حتى اللحظات الأخيرة.

4.خاتمة:

وفي الأخير نقول أن " خطوات في الاتجاه الآخر" لحفناوي زاغز صيغة جمالية لعالم ذاتي ـ واقعي تخييلي، صيغة جمالية لعالم العنف والقمع وضمير الإنسان في تجربته ورؤيته، وفي وطنه وشعبه، وفي ذاكرته ومخيلته، صيغة جمالية لـ توليفة من الفنيات عرف كيف يوظفها بأسلوبه الشيق والمتميز، دون مغالاة أو انفلات أو انغلاق في سردية وصفية، صيغة جمالية أنمت على قدرته الكبيرة على مزج الحقيقة بالخيال.

. الهوامش

[1] . إبرهيم الرماني، حفناوي زاغر ... تجربة إبداع قراءات وشهادات، ،دار الحكمة للنشر،د/ط،الجزائر، 2009،ص:89

[2] . ينظر،ابن منظور: لسان العرب، مادة عنف،المجلد/13، دارصادر، د/ط،لبنان، د/ت، ص:465

[3] . ينظر الشريف حبيلة: الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، جامعة العربي التبسي، ط/1، الجزائر، 2010 ،ص: 11

[4] . حسان راشدي ، الرواية العربية الجزائرية ، 1811-2000م، صيرورات الواقع ومسالك الكتابة الروائية ، مقارنة بنيوية تكوينية ، رسالة دكتوراه ، جامعة منتوري ، قسنطينة، 2003/2002،ص: 375

[5] . فتحي فارس، عنف الخطاب الروائي في"طائر الخبل" لعبد الله الرحالي سلطة اللغة في مواجهة لغة السلطة، مجلة أفاق فكرية،جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر،ع/3،أكتوبر 2015، ص:196

[6] . حسان راشدي ، الرواية العربية الجزائرية ، 1811-3000م صيرورات الواقع ومسالك الكتابة الروائية ، مقارنة بنيوية تكوينية،مرجع سابق ،ص 229

[7] . الرواية،ص 58/57

[8] . حفناوي زاغز، خطوات في الاتجاه الآخر، دارهومة،د/ط، الجزائر، 2008، ص:67

[9] . الرواية، ص:133

[10] . فليب لوجون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي،المركز الثقافي العربي ، ط/1، لبنان، 1994،ص22.

[11] . عبد النور جبور: المعجم الأدبي ،دارالعلم للملايين، ط2 ، لبنان، 1984،ص143.

[12] . الرواية، ص: 11

[13] . الرواية، ص: 13

[14]. عبد السلام بادي،عُصاب الحرب وعنف اللغة والتشكيل في رواية الأزمة : واسيني الأعرج نموذجا، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، المركز الجامعي لميلة، الجزائر،ع/2،2015،ص: 277

[15] . المرجع نفسه،ص:229

[16]. الرواية ،ص: 76

[17] . الرواية،ص:98

[18] . الرواية،ص:78/77

[19] . الرواية،ص:13

[20] . الرواية،ص:98

[21] . الرواية،ص:19

[22] . الرواية،ص: ص:36

[23] . الرواية،ص: ص:54

[24] . روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ،تر: محمود الربيعي، دار غريب، د/ط ،القاهرة 2000ص:27

[25] . الرواية،ص:25

[26] . الرواية،ص:10

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊